

ثلاثة كتب تتناول بيروت ولبنان وسورية. سمير قصير جعل من الكتابة موقفاً وفعلاً

بيسان طي

غاب سمير قصير سنوات عن ساحة الكتب، فبدا لقرائه مكتفياً بدوره كصحافي وبما يقدم لهم في صحيفة 'النهار' اليومية. لكن سمير قصير المؤرخ عاد قبل شهور مصدراً 'كتاب العمر'، إذا جاز التعبير، 'تاريخ بيروت' كما كتبه باللغة الفرنسية. أرخ قصير للمدينة التي يحب بأسلوب روائي سردي وعرض لتاريخ متعدد الجوانب: سياسي واجتماعي وثقافي، مجارياً مدرسة جديدة في التاريخ، مثلما يجاري مدرسة جديدة في كتابة 'الافتتاحيات' لا تلتزم قصراً بالكتابة السياسية في معناها الضيق.

أخرج سمير قصير تاريخ العاصمة اللبنانية من التداول الضيق معتمداً في شكل رئيس على ما تقدمه إعادة اكتشاف أو إعادة قراءة التاريخ المتعدد لهذه المدينة.

بدا قصير وكأنه لم يكنف بالتاريخ، إنما أراد أن يسجل موقفاً في هذه المرحلة التي يعيشها لبنان وسورية، فأصدر أخيراً كتابين يجمعان بعض مقالاته، الأول بعنوان: 'عسكر ع مين'، والثاني 'ديموقراطية سورية واستقلال لبنان' وصدر عن دار النهار.

لماذا هذه الغزارة في الانتاج؟ يشير قصير الى انه لا يضع الكتابين اللذين يجمعان مقالاته في المستوى نفسه مع 'تاريخ بيروت' فهو 'عمل حياة'، وتم التعامل معه على هذا النحو، واستغرقت كتابته ثلاث سنوات، واستمر البحث والتفكير فيه عشر سنوات، 'كل حياتي فيه' يقول سمير. أما لماذا هذه الكتب الثلاثة في زمن ضئيل نسبياً، فيؤكد الكاتب: 'الهدف ليس اضافة عناوين جديدة الى الببليوغرافيا الخاصة بي، لكنني أردتها شهادة في هذه المرحلة بالذات، انها كتب تشهد أن ثمة من يكتب في لبنان وليت آخرين، من سياسيين وكتاب، يظهرون عنادا من هذا النوع'. المرحلة إذا هي مرحلة الحديث عن الانتخابات الرئاسية أو التمديد للرئيس إميل لحود، وربما تمديد للسياسات التنفيذية والنيابية التي تحكم لبنان. ويتذكر قصير ان 'عسكر ع مين' مقال سبب له مشاكل مع أجهزة أمنية لبنانية، لكنه لم يختره عنواناً لكتابه تحدياً لها بل للتذكير بأن المرء يستطيع الصمود. ويستذكر إذ يتذكر هو نفسه أنه عاد للعمل على كتاب 'تاريخ بيروت' بعد هذه المشكلة بالذات.

المقالات التي اختار قصير إعادة نشرها لم تجمع في كتاب واحد لسببين: الأول يتعلق بعدها، إذ سيفوق عدد صفحات الكتاب في هذه الحالة الـ 400 صفحة، و'عسكر ع مين' يهدف الى تسليط الضوء على مشكلة اللبنانيين الداخلية في إطارها الأوسع، أي إطار المعركة من أجل الديمقراطية في المشرق العربي.

يؤكد قصير ان الوضع السوري 'استثنائي' في المنظومة العربية 'ويلونها بطعم الاستبداد' بعد سقوط صدام، ويضيف ان 'سورية اليوم أمام منعطف، وعلينا أن نقول ان مطلب الإصلاح ليس أميركياً بل سوري وعربي، بدليل ما كتبه سوريون في الصحافة اللبنانية أو اللبنانية المنشأ'.

ويرى قصير ان كتاب 'ديموقراطية سورية واستقلال لبنان' ينفي عنه بعض التهم الزائفة التي تساوي آراءه بآراء المعارضة المسيحية أو بالموقف العنصري من السوريين. ثمة كلمات في المقدمة وفي المقالات تؤكد حب سمير لسورية، وهو يقول في هذا السياق ان ثمة دولا عربية يشعر المرء أنه قريب منها كمصر مثلاً، ويضيف: 'لا تمييز بين لبنان وسورية تاريخياً أو إنسانياً أو ثقافياً... مشكلتي مع النظام السوري - لا مع سورية - لأنه مهيم على لبنان، ولأنه من الحرام أن تبذل طاقات سورية بهذا الجمود السياسي والثقافي'. ويرى قصير أن تعيب لبنان من خطاب المعارضة السورية مسيء سياسياً، فإذا انتهت الهيمنة السورية على لبنان ستؤدي الى تغيير حتمي للهيمنة في الداخل السوري.

أليس في استعادة المقالات في مجموعتين محاولة لتأريخ مرحلة من حياة لبنان وسورية؟ يجيب قصير بأن 'في ذلك تاريخاً للحدث من خلال قراءة كاتب، وتاريخاً لأمر أهم هو استعادة الصحافة في بيروت لحرية الكلام'. وتتغير نبرة صوت قصير، عندما يرد محتجاً على انطباع بأن تجربة جمع المقالات في كتب لم تجذب القراء من كل الأجيال أو في أي وقت، وأن كتاب الصحافي الراحل ميشال أبو جودة هو خير مثل يقول، وهو الذي أشرف على اختيار المقالات لهذا الكتاب، انه لا يزال يقرأ مقالات أبو جودة حتى اليوم، بخاصة تلك التي كتبها أبو جودة عن سورية أو عن البعث وميشال علق. ثم ينتقل الى الحديث

عن كتابيه الجديدين، قائلا: 'لا أدعي أنهما سيبقيان دائماً، ولكن ثمة مقالات كثيرة لا تزال قابلة للقراءة اليوم ولا تحتاج الى شرح

كتاباً قصير هذان، لفتنا أيضاً الى أسلوبه، هو المنتمي الى جيل جديد من المعلقين الذين لا يقصرون مقالاتهم على الأمور السياسية بل يسمون كتاباتهم ببعدين: ثقافي وتاريخي. وهو يقول ان الصحافة العالمية شهدت تحولاً كبيراً، لم يعد التعليق قائماً على 'قشرة' الأحداث، بل على 'مقاربة' الحدث السياسي

ويشير الى أن التربية الماركسية تلعب دوراً أساسياً في قراءة الحدث كمرآة لشيء آخر .

أما عن تأثير الصحافة الفرنسية، وهو متابع لها، وعمل فيها 12 عاماً، فيقول انه تأثر أكثر من غيره بثقافة الإعلانات وثقافة السينما
البرصية

الحديث مع قصير يأخذ وجهات متعددة ولا بد من العودة الى كتاب 'حياته' والى بيروت، هذا الكتاب الذي لا يشبه ما حفظناه من كتب التاريخ التي كانت مدرجة في مناهجنا التربوية. يقول قصير: 'بالطبع إنه لا يشبهها' ويتذكر المناهج الأوروبية التي استوعبت التاريخ الحديث الذي يتضمن الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. ثم يدخل في تحليل علمي قائلاً: 'بيروت خارج التاريخ اللبناني والعربي، لم يؤرخ لها إلا من خلال الحرب اللبنانية أو بعدها ومن زاوية عائلية. بيروت التي نعرفها والتي تستحق التاريخ هي تلك المدينة التي تخطت أخيراً العائلات الصغيرة وحطمت الجدار'. ويرجع قصير أمر إبعادها عن التاريخ اللبناني كون هذا التاريخ بني حول جبل لبنان، لكننا إذا أخذنا في الاعتبار تطور الكيان اللبناني، فلا يستطيع التاريخ أن يكتفي بالجبل، في بيروت لعبت دوراً مساوياً للجبل وتخطته أحياناً، تأثرت به وأثرت فيه وفي بقية المناطق اللبنانية، منذ الثلاثينات من القرن الماضي بدأت لبننة بيروت. والسبب الثاني لاستبعاد بيروت من الكتابة التاريخية هو أن هذه المدينة لم تكن ذات أهمية في المرحلة العربية وفي مختلف الحقب الإسلامية. لكن بيروت الحديثة عرفت كيف تحفر لنفسها موقعا وتلعب دوراً مهماً في كتاب قصير هي بطل الرواية، لذا يجيب رداً على سؤال عن الأسلوب الروائي في الكتاب، أنه قدم سرداً تاريخياً فيه أقل قدر من الأساطير أو هو بعبارة أدق، يستخرج منطق تطور المدينة من دون تسليم بروايات أسطورية. في الكتاب نوع من 'التلويح' ينبع من خيارات قصير الثقافية (العثمانية والعروبية والكوزموبوليتية). لكن قصير يشدد على أن 'لا ذاتية في الكتاب إلا من خلال عملية العزف من الذاكرة كنقطة انطلاق للبحث'.

الجديد في كتاب قصير لا يقتصر على إخراج بيروت من حيز ضيق بل في لغته السردية الجديدة أيضاً وفي أسلوبه الجديد في قراءة الأحداث، وهو يذكر نوعاً ما بمنهج المؤرخ اللبناني كمال الصليبي، خصوصاً في إصداراته الأخيرة. وفي هذا السياق يقول قصير ان بعض التشابه قد يكون قائماً بين كتابه وكتب الصليبي ابتداءً من كتابه 'بيت بمنازل كثيرة'. ويرى ان المؤرخين اللبنانيين يستفيدون من النقد الذي وضعه الصليبي ومن إعادة اكتشافه في الثمانينات من القرن الماضي للتاريخ العثماني

ما الجديد في كتاب 'تاريخ بيروت' في نظر قصير؟ يتوقف المؤلف عند أمرين: الأول يتمثل في التطورات في نمط الحياة في بيروت، كيف تأقلمت هذه المدينة مع نمط جديد للحياة في القرنين التاسع عشر والعشرين. فالمدينة كانت تعيش الحداثة اليومية وعلى مختلف المستويات، ومنها تحديداً وضع المرأة. فساكنة بيروت كانت أكثر تحرراً من البيروتية كمواطنة لبنانية، وقد أحرزت تقدماً في الخمسينات والستينات من القرن الماضي لم تكرسه القوانين اللبنانية، كالعلاقة الجديدة بالجسد. أما الأهمية الثانية للكتاب فتكمن في الاهتمام بالقطاع السياسي البيروتي المنشأ. ويضيف من جهة أخرى مثلاً أن المطبخ اللبناني أثر في المجتمعات العربية، والإعلام اللبناني كذلك، لكن هذا القطاع بدأ يخسر من موقعه. وكانت بيروت أول مدينة عربية فيها جامعتان: الأميركية واليسوعية (جامعة القديس يوسف).

ويختتم قصير حديثه بأن 'أبو العبد' الشخصية البيروتية الشهيرة (يمثل بيروت أقل بكثير من جورجينا رزق التي وقفت على تماس بين 'عالم الجمال والسطحية' و 'عالم السياسة والعواطف'. ويؤكد: 'إذا استعدنا القليل من هذا التراث البيروتي سنتمكن من مواجهة التطبيع بطابع الاستبداد. وعلى رغم تشاؤمي العميق بإمكان ذلك، إلا أن كتابي اللذين يتضمنان مجموعتين من مقالاتي هما محاولة لإكمال كتابة تاريخ بيروت'.

الموضوع: عام

المصدر: الحياة